# الباب الثاني
# الفروسية العربية والفروسية الألمانية

- الحدود العدائية تصبح ساحة اتصال.

- الفروسية العربية.

- من هو الفارس الألماني.

- الكنيسة تتعلم في مدرسة الإسلام.

- روابط الفرسان محاكاة للفروسية الإسلامية العربية.

## الحدود العدائية تصبح ساحة اتصال

لم يكن ذلك الاندفاع الحماسي نحو عدو الدين في مصلحة الكنيسة الرومانية مطلقاً، فقد أدركت الخطر الذي يهدد وجودها، بل وتأثيرها على شعب فشلت حتى ذلك الحين في التغلغل بعمق في نفسه، وكان ذلك الخوف يرجع إلى قوة الجذب التي يتمتع بها الإسلام، ذلك المنافس الخطير الذي انتشر بصورة مثيرة للفزع، ولقد كانت هناك أسباب عديدة دفعت الكنيسة إلى أن تسدل ستاراً حديدياً بين الشرق والغرب، منها القلق إزاء تلك التأثيرات المستمرة غير المباشرة للعرب وإزاء قوة الجذب التي يتمتع بها دينهم - الذي اعتنقه طواعية وبأعداد كبيرة من فتح الإسلام بلادهم - بالإضافة إلى حيرتها إزاء ذلك التعلق الشديد من جانب المسلمين بدينهم واستعدادهم لبذل أنفسهم رخيصة في سبيله، وليس آخراً فإن الكنيسة كانت تخشى من تقاليد العدو المحيرة وثرواته الضخمة وإنجازاته العديدة التي يمكن أن تحدث تأثيراً خطيراً، ولذلك فإن الحجاج واليهود كانوا هم الذين تمكنوا من التسلل عبر تلك الحجب الكثيفة التي أسدلت طوال مئات السنين.

ولم يقتصر الأمر عند حد تلك العزلة المكانية، فقد أسدلت الكنيسة أيضاً ستاراً فكرياً على عقول مواطني الغرب، لأنها كانت تعتبر أن المسيحي وحده هو الإنسان الذي يتمتع بكافة الحقوق الإنسانية، وهو من اختارته العناية الإلهية، مما دفع المسيحيين إلى أن يعتبروا من ليس من دينهم سواء كان كافراً أو مسلماً - إنساناً غير سوي لا ينتمي إلى الجماعة الإنسانية وليست له حقوقها، وبالتالي من حقهم أن يعاملوه بصورة مختلفة عن معاملة المسيحي وأن يشهروا السلاح في

وجهه ويهاجموه ويقتلوه ببساطة - كما قيل من قبل - في حين أن الشيء نفسه يعتبر خطيئة لو ارتكب في حق المسيحي، وهكذا نجد أن تلك التفرقة الدينية تفرق بين من هو إنسان ومن هو غير إنسان تماماً كما تنفصل الحياة عن الموت، والسلام الدائم عن اللعنة الأبدية وتأكيداً لذلك تنشد المسيحية في قصيدة "المسيح الكاذب":

هذا الدين يهب الناس الحياة

ويغفر ذنوب الموتى

فمن دان بدين غيره

خسر الخلاص أبداً

وينطبق التمييز بين "دولة الرب" ودولة الشيطان، ذلك التمييز الحاد الذي يوجهه أوجستين ضد القيصر الألماني أيضاً، ينطبق أحياناً على كل الملحدين ودول الملحدين، وكانت كتابة التاريخ والتقارير وفنون الكتابة عموماً هي مسؤولية رجال الدين، لذلك فإنهم عملوا على تصوير أعدائهم في صورة شياطين وعبدة شياطين، وكان تشويه الحقائق على هذه الصورة التي بلغت حد الدعاية الظالمة كفيلاً بأن يجعل الناس تصدق ما يلصق بعدوهم من سوء وباستحقاقه للعقاب.

ولم تكن الكنيسة تعتبر الملحدين هم الأعداء الألداء لها، لأن أعداءها هم "من يعتنقون ديناً غير دينها" لأن هؤلاء هم الذين يمكن أن يمثلوا خطراً عليها، ولقد كان ذلك الخوف هو الذي دفع الكنيسة إلى تصوير محمد ﷺ على أنه المسيح الدجال أو أحد الهراطقة والصنم الذي تقدم له الأضاحي البشرية.

كان ذلك الخوف هو الذي استغلته الكنيسة من أجل تأكيد تلك العزلة وإثارة

الكراهية الدينية والتعصب، الأمر الذي مهد المناخ للحروب الصليبية أياً كانت الأهداف الحقيقية لتلك الحروب، وكانت الصيحة الصليبية التي أطلقها البابا أوربانس الثاني من دير كلبر مونت عام ١٠٩٥م - بصياغة عصرية لعدم توافر الأصلية - لإثارة حماس النبلاء الفرنسيين تدعوهم قائلة : "عليكم يا رُسل المسيح أن تطردوا تلك الفئة الملحدة من أرض إخوانكم لأنه من العار علينا أن تنتصر تلك الفئة الكافرة التي تستحق كل احتقار والتي تفتقر إلى الكرامة الإنسانية وانزلقت لتصبح من عبيد الشيطان، من العار أن تنتصر على شعب الله المختار" .

وكانت إثارة المشاعر الدينية بالتحقير من شأن عدو الدين وسيلة وضعت بها الكنيسة حاجزاً خطيراً أمام التعصب الديني، وبالتالي كان ذلك سبباً في هزيمتها فلقد وقع ما كانت تريد الكنيسة الحيلولة دونه .

فلقد ساعدت الكنيسة نفسها - خلافاً لما كانت تريده - على فتح الأبواب التي حرصت على إغلاقها لكي تتدفق مظاهر التفوق الثقافي والفكري من الشرق نحو الغرب، وقد حدث ذلك بسبب دعوتها إلى الحرب المقدسة من أجل تحرير الأراضي المقدسة، في حين أن تلك الحرب كانت تهدف في الأصل إلى خدمة مصالح مختلفة تماماً، واستطاع الشرق العربي الانتقام لنفسه من ذلك الهجوم الشامل من جانب المسيحية الغربية التي أرادت إفناءه تماماً فقد انتصر هو عليها بإنجازاته الثقافية والحضارية وجعل حياتها أكثر ثراء وأحدث تغييراً جذرياً في إحساس الغربي بالحياة في كل مناحيها .

وكان مجرد التوسع الإسلامي وسيطرة العرب على البحر المتوسط ومجرد وجودهم كافياً للتأثير على أقدار الغرب، وكانت تلك التأثيرات بالطبع غير مباشرة، إذا استثنينا ما سببته الهجمات الخاطفة على الحدود والسواحل التي

كانت أشبه بوخزات الإبر، وكان من نتيجة ذلك انتقال مركز الثقل في السياسة العالمية حينذاك بالنسبة إلى الغرب من البحر المتوسط حتى المنطقة الواقعة حول الراين والسين، ونشأ عن ذلك في الوقت نفسه نوع من العزلة سببت بدورها تغييرات سياسية - ثقافية واقتصادية بعيدة الأثر إذا أمعنا النظر فيها ملياً سنجد أنها كانت بمنزلة تخلف بيّن. وقد ساعدت محاولات العزل الكنسية تلك في مواجهة القوة الجديدة الظافرة وهيبتها الوقورة الهائلة، ساعدت على زيادة حدة الذاتية لأوروبا، وكان تفاقم تلك العزلة متفقاً مع نجاح الكنيسة في إثارة التعصب الديني والعقدي ضد من كانت تسميهم "بالكفار" وبشكل منهجي لهذا الغرض، وعلى الرغم من أن ما نورده الآن قد يبدو متناقضاً، إلا أن الذي حدث فعلاً أن ذلك التأثير غير المباشر قد بدأ يتغير الآن بسبب تلك العزلة الحادة ليتحول إلى تأثير مباشر وجهته الكنيسة نفسها نحو مجال بعينه، ذلك هو مجال الحرب والشؤون الحربية، وكل ما يتعلق بها، وبهذا غدت الحدود ساحة للالتقاء.

ولقد حدث ذلك أساساً على الجهة الإسبانية، ذلك أن اللقاءات المتكررة منذ بداية القرن الثامن في المعارك التي دارت بين الفرنجة وعرب الأندلس القادمين من أكويتانيا والبرفانس وغيرها، والاحتكاكات الدائمة بسبب منطقة الحدود المنتزعة من إمارة قرطبة لم تكن أكثر من مناوشات أولية في بداية مواجهة عدائية استمرت طيلة قرون بين الشرق والغرب، لم تتخللها هدنة إلا نادراً. كذلك كانت الممالك المسيحية التي تقهقرت إلى أقصى الشمال في المناطق الجبلية نتيجة لسيطرة العرب على شبه الجزيرة الأيبرية - وكانت تلك الممالك المسيحية متنافرة متعادية كثيرة التنازع فيما بينها ترى في إمارة قرطبة عدوها الطبيعي، حتى بعد أن تفككت هذه الإمارة إلى إمارات مبعثرة داخل الأندلس. وأياً كان الأمر فقد كانت تلك

اللقاءات تأخذ صورة المودة حين تخف حدة المواجهة العدائية بين الطرفين. كذلك كان تداخل الجبهات والمعسكرات بعضها مع بعض من الأمور المميزة لأوضاع شبه الجزيرة الأيبرية وللروح السائدة بين الخصوم خلال تلك القرون الأولى إلى حد أنه كان يمكن أن يحدث تحالف بين ملك مدينة ليون المسيحي وأحد الأمراء المسلمين ضد ملك "نافارا"، وأن يطلب الوالي العربي الأندلسي الذي تمرد على الخليفة مساعدة عدوه الإسباني. ولقد كانت تلك الخلفية هي التي مهدت لخلق الشخصية النموذجية للفارس "رود ريجود ياس" الذي كان مسيحياً من شمال إسبانيا وعمل حيناً في خدمة إمارة "قسطلة"، وعمل في أكثر الأحيان مع العرب الذين كرموه ولقبوه "بالسيد" وهو اللقب نفسه الذي اشتهر به بطلاً إسبانياً شهماً. كانت زمالة السلاح القوية قد مكنته من معرفة كلا الجانبين، لذلك فقد كان يعامل خصومه جميعاً بشهامة، مسلمين كانوا أم مسيحيين، ذلك أن التناقضات الدينية لم تكن هي القاعدة السائدة حتى ذلك الحين، إلى أن بدأت حرب استعادة إسبانيا من العرب تأخذ طابع الحرب الضروس ضد أعداء المسيحية.

وكان بديهياً أن يتعلم الخصوم من بعضهم نتيجة للمواجهات العدائية بينهم التي استمرت طوال ثمانية قرون، فاقتبس بعضهم من بعض أفضل الأسلحة وأكثر الأساليب التكتيكية فعالية، وأساليب الحصار، التي تفي بالغرض أفضل من غيرها، وتعلموا أن يتقنوا فوق ذلك أنماط السلوك والتنظيم والإدارة وأخلاقيات المقاتل المتفوق وأن يحدثوا فيما بينهم تواؤماً متزايداً. كان تفوق الجيوش العربية المدربة المتمرسة على القتال حتى بداية القرن الحادي عشر شيئاً واضحاً حين قام القائد العظيم "المنصور" بتوسيع حدود الخلافة حتى جبال البرانس، فحرك اثنتين وخمسين حملة ظافرة ضد شمال إسبانيا، أما الهجمات الناجحة

التي قام بها الجانب الإسباني فكانت قاصرة على الاستيلاء على مناطق تكاد تخلو من السكان وعلى الحصول على مكاسب عابرة، ومن هنا كان بديهياً أن تتدفق تأثيرات مهمة في المجالات الحربية من الجانب العربي إلى شمال إسبانيا.

ولقد شملت تلك التأثيرات أيضاً دول أوروبا، ولم تقتصر على شمال إسبانيا، وكان المحاربون من الفرنجة يتدخلون دائماً إلى جانب جيوش شمال إسبانيا في المعارك التي تدور ضد العرب منذ أيام كارل مارتل وشارلمان الذي تحالف هو الآخر مع بعض العرب ضد بعضهم الآخر، ومنذ أيام لودفيج التقي الذي تعاون أحياناً مع الباسك والأستوريين المسيحيين منطلقاً من أكويتانيا وكان الفرسان من كافة الدول الأوروبية، ومن فرنسا وحدها يشتركون تدريجياً في الحملات العسكرية ضد عرب الأندلس جنوبي جبال البرانس، تلك الحملات التي بدأت منذ أعوام ١٠٠٣، ١٠١٧، ١٠٣٣ تأخذ طابع الحروب المسيحية الدينية، وأعلنت بالفعل كحروب صليبية منذ المعركة التي دارت حول "حصن باربشتر" عام ١٠٦٤، كما أن بعض تلك الحملات كانت تُدار بإشراف بابوي.

وتكرر الشيء نفسه في صقلية وجنوب إيطاليا حيث أقام العرب من عام ٨٢٧م إلى عام ١٠٦١م دولة مزدهرة ثقافياً واقتصادياً، ومن ثم نشأت جبهة جديدة بين الشرق والغرب، وحدث بالتالي اتصال وثيق تخلله اختلاط الجبهات وتداخل التحالفات بين المسيحيين والمسلمين في بعض الأحيان، وظل الحال على هذا المنوال حتى بداية القرن الحادي عشر خلال أعوام ١٠٠٣م، ١٠٠٥م، ١٠١١م، ١٠١٥م، ١٠١٦م - حيث أدت المعارك الدينية المتكررة إلى تفاقم الوضع، ثم تحولت المواجهة القتالية إلى محاولة للتلاؤم وأصبح المنتصر - عن قصد أو غير قصد- مثالاً يحتذى. ثم لم يكن مصير الناس المتأرجح بين الحياة والموت معلقاً

بتحقيق المساواة مع الخصم، بل والتفوق عليه؟ وكان النورمان وهم أصحاب خبرة في ركوب البر والبحر ومهارة في القتال اكتسبوها من حروبهم مع العرب في إسبانيا وإيطاليا ومع غيرهم، كانوا هم الذين مدوا جبهة القتال حتى الشرق قبل أن تبدأ الحروب الصليبية بمائة عام. وأياً كان الأمر فإننا نجد أن الاحتكاك - العدائي المستمر مع العرب كانت له آثاره على الفروسية؛ فلقد تحول الفارس الجرماني ليصبح من فرسان العصور الوسطى، في حين أن الفروسية العربية بوصفها فكرة وقدوة كانت أقدم بكثير من الفروسية المسيحية - الأوروبية، ذلك أن الفروسية العربية كانت تعود إلى عصر ما قبل الإسلام.

## الفروسية العربية

حددّ شظفُ الصحراء العربية وأخطارها الدائمة صورة لما يجب أن يكون عليه المحارب في جنباتها، شجاعاً في القتال صلباً في وفائه لنداء الثأر، كريماً إلى حد التضحية بالنفس، سخياً مع الضيف الغريب ولو كان هذا الغريب عدواً له.

كان المحارب في الصحراء ينكر ذاته ويضع نفسه رهن عشيرته وقبيلته، ويرعى رفاقه ويبرهن على علو الشيمة في مواجهة الخصم إلى حد الاعتراف به وبقدره، وترسم قصائد البطولة العربية التي ترجع إلى العصر الجاهلي القديم صورة ذلك البطل الشهم بخطوط بارزة مثل الشاعر والفارس الشاب تأبط شراً الذي كان يحمل أيضاً لقب "الشعل" ونراه هنا يطلب ثأر شقيقه:

شامس في القر حتى إذا ما ... ذكت الشعرى فبرد وظلُّ
يابس الجنبين من غير بوس ... وندى الكفين شهم مُدلُّ
ظاعن بالحزم حتى إذا ما ... حل حل الحزم حيث يَحُلُّ
غيث مزن غامر حين يجدي ... وإذا يسطو فليث أبَلُّ
يركب الهول وحيداً ولا يصر ... حبه إلا اليماني الأفَلُّ
وفُتُوٌّ هَجَّرُوا ثم أسْرَوْا ... ليلهم حتى إذا انجاب حَلُّوا
كل ماض قد تردى بماض ... كسنا البرق إذا ما يُسَلُّ
فادَّركنا الثأر منهم ولما ... ينج مِلْحَيَّيْنِ إلا الأقَلُّ[1]

(١) انظر شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (١-٤) نشره أحمد أمين وعبدالسلام هارون- القسم الثاني، الطبعة الأولى - القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧١هـ - ١٩٥١م ص ٨٣٠.

تعبر الأبيات عن روح مفعمة بالفروسية تسكن صدر المحارب الذي صقلته الحروب سواء كان مقضياً عليه بالهلاك أو الفوز، إنه يعترف بفضائل عدوه ويمدحها معبراً بذلك عن مثل أعلى للروح النضالية النبيلة. وهذا هو أبو المثلم يرثي خصمه المقهور صخر الغي:

لو كان للدهر مال عند متلـــده | لكان للدهر صخـــر مال قنيان

آبل الهضيمة ناب بالعظيمة متـ | لاف الكريمة لا سقط ولا وانى

وهذا النمط العربي القديم لفارس الصحراء الشهم هو ما يطلق عليه اصطلاح "الفتى" الذي بلغت فيه الملامح الأساسية المثالية للعروبة منتهاها. ولم يتبدد هذا النمط بعد ظهور الإسلام، كما حدث لنمط المحارب الجرماني مع ظهور المسيحية بل ظل باقياً في إطار الدين الذي بشر به النبي ﷺ وأحدث تغييراً وتحولاً أساسياً في حياة المؤمنين كلها. وإذا كان "الفتى" في الماضي يقتحم الأهوال بلا تحفظ، بل ويضحي بحياته ذاتها إذا اقتضى الأمر ذلك في سبيل الضيف، صديقاً كان أم عدواً بمجرد أن تطأ قدمه أرض العشيرة، ويعتبر ذلك أمراً طبيعياً لا تحفظ عليه، كما يفعل تماماً مع ذوي قربته فإن التزام العشيرة أو القبيلة بتقديم العون، وبسط الحماية أصبح يتسع في ظل الإسلام ليشمل "جماعة المؤمنين كلهم" "الأمة" التي عهد إلى المقاتلين بمهمة حمايتها، وهكذا ظل الفرسان المحاربون على عهدهم لا يكلون ولا يملون، وكان الولاة يقطعون عليهم الأراضي مستندين في ذلك إلى نظام الإقطاع الفارسي – الساساني.

وأصبح المفتي -المثل الأعلى عموماً هو القدوة التي تحذو حذوها الجماعات الإسلامية. وقد ذكر رجل عربي من أهل ألمرية أنه لم يكن هناك في إسبانيا العربية مقاتلون سوى من يقاتلون في سبيل الله، أو سوى من يختارون الشهادة مرضاة

لله، كذلك تكونت جماعات تضم الشباب ازدهرت في القرن التاسع في مدن العراق بشكل خاص، وعلى الرغم من أن جماعات الفتيان هذه كانت تشبه في بادئ الأمر منتديات الإقطاعيين الراقية في فرنسا للطبقة الأرستقراطية، والتي يستمتع فيها أصحابها بأطايب الطعام والشراب ويمارسون ألعاب الفروسية وغيرها، إلا أنها خرجت في القرن العاشر عن ذلك الأسلوب المنعم في الحياة وقامت بإعادة تنظيم نفسها آخذة بالمبادئ الدينية للصوفية.

كما أن الارتباط بأنموذج الفتى القديم أدى إلى ظهور أنموذج "الفتوة" بشكل واضح، ذلك الذي يعتبر بمنزلة دستور للأخلاق الأرستقراطية[1] التي تدعو إلى التمسك بالشجاعة والتحلي بالكرم والعفو والصفات الإنسانية عموماً التي تشمل خدمة الجماعة وفق التعاليم "الاشتراكية الإسلامية[2]" ذات الطبيعة الخاصة وكما جاءت في القرآن والتي تنادي بأن يساعد كل إنسان أخاه، كما تشمل الواجبات التي تمليها التقاليد.

وبعد أن قام الخليفة الناصر في القرن الثاني عشر بإعادة تشكيل جماعات الفتوة، أخذت هذه الجماعات تؤدي دوراً أساسياً في الدولة، فقد قامت على مسؤوليتها الخاصة بمحاربة الظواهر الخطيرة في البلاد مثل: محاربة الإرهاب الذي كانت تمارسه جماعات "الحشاشين" المتطرفة التي يقال عنها إنها كانت تمارس القتل مدفوعة بالتخيلات الناشئة عن تدخين الحشيش، وجماعات الحراس الشخصيين من العبيد الذين زادت قوتهم وتجاوزت الحدود كما كان الخلفاء والأمراء أنفسهم يرتدون زي رجال الفتوة ويعتمدون على جماعاتهم في دعم

(١) المراد الاخلاق العالية.

(٢) ليس هناك تعاليم اشتراكية إسلامية فهذا التعبير جانبه الصواب وإنما يوجد نظام التكافل في الإسلام.

نفوذهم، مما أدى في الوقت نفسه إلى تأكيد أخلاقيات تلك الجماعات، والرفع من شأنها لأنها كانت تصدر عنها غالباً بعض التجاوزات في استغلال السلطة. وانتقلت صورة "الفتى" إلى "المرابطين" تلك الجماعات من الفرسان التي برزت في كل المجالات بعد الفتوحات، وقد اشتق اسمهم من كلمة "يرابط" التي كانت تطلق في الأصل على "تربيط" الخيول بواسطة فرقتين متحاربتين تقفان على أهبة الاستعداد للقتال، كذلك استخدمت الكلمة لتدل على "الخروج لمقاتلة الكفار من موقع ثابت"، ثم قصد بها أخيراً "القطعة الثابتة ذاتها وذلك في تعبير "الرباط"، وتعبير الرباط (في صيغة الجمع) يعني تلك القلاع العسكرية المقامة على الحدود التي كان يستخدمها المرابطون في القرنين السابع والثامن لحماية الحدود الواسعة للمملكة وما حولها، أو كانوا يقيمونها فوق قمم الجبال أو على الطرق المؤدية إلى الحدود، وتمكنوا عن طريقها من الدفاع عن "دار الإسلام" أي عن الدولة الإسلامية.

وكما كان الجمع بين البطولة الحربية والتقوى وفقاً للتصور الإسلامي الشامل لشؤون الدين والدنيا هو الذي تقوم عليه شخصية الفارس المسلم، محارباً وصاحب إقطاعية وعضواً في رابطة الفتوة، كذلك كانت هذه الوحدة بين الدين والدنيا هي الجوهر والمضمون الذي يستند إليه هؤلاء الفرسان داخل تلك القلاع الحربية المتاخمة للحدود، وهكذا كان هؤلاء المرابطون أو المتطوعون الصالحون الذين كرسوا أنفسهم مدى الحياة للخدمة العسكرية يجمعون في وقت واحد بين الالتزام بالجهاد لتوفير الحماية للأمة، «أمة المسلمين» والدفاع عن الإسلام ضد الكفار، وهو ما يعتبر أفضل واجبات الجماعة الإسلامية بالنسبة إلى المسلم، وبين العزلة المترهبة والقيام بالتدريبات الروحية، وكانت الرابطة بين هذين الأسلوبين

في الحياة وثيقة حقاً. كذلك كان دستور حياتهم ينص على التحلي بالشجاعة التي لا تهاب الموت وعدم الإحجام عن خوض القتال والعزم والتصميم والإصرار على الثبات في مواقعهم حتى الموت، مع الاستعداد الفعلي للتعاون وبذل العناية بالمرضى، كذلك جمع هذا الدستور بين صفات الطاعة وكبرياء البطولة، بين الالتزام بالنظام والمساندة التي لا حد لها لرفيق الجماعة وبين التسامح والكرم في معاملة الناس. ألم تكن كل هذه الصفات في جوهرها هي التقاليد نفسها التي قامت عليها الفروسية العربية القديمة؟

وكان المرابطون يعيشون في قلاع حجرية عالية تحميها الأبراج، ويضعون جيادهم دائماً على أهبة الاستعداد للهجوم السريع على أي مكان يأتيهم منه خطر اقتحام أراضيهم، أو مداهمتها من قبل قوات ما، كما كانوا ينطلقون منها للقتال في سبيل الله، وكانوا على درجة عالية من التنظيم، وكانوا بجانب جهادهم في سبيل الدين يقومون بواجبات أخرى - مثل العناية بالمرضى وإيواء حجاج مكة العابرين والاهتمام بالتدريبات الروحية، وعندما يتقدم بهم العمر ويعجزون عن القتال، كانوا يقومون بتدريس القرآن في قاعات الصلاة الكبرى بالقلاع. كذلك كان سكان المناطق المحيطة بتلك القلاع، سواء كانوا من الصناع أو التجار أو أرباب الأسر والفتيان، وأعضاء جماعات الفتوة والفلاحين يؤلفون فيما بينهم جماعات تتناوب العمل داخل القلاع في أوقات الخطر كنوع من مد يد العون إلى المدافعين عنها.

وكان في مقدور المرابطين تكوين نوع من مركز القوة في بعض الأحيان نتيجة لاستقلالهم عن سلطة الحكومة المركزية، وكان ذلك يتيح لهم التدخل في الشؤون السياسية الداخلية كما أشرنا من قبل، ثم أصبحوا يمثلون في القرن الحادي عشر

قوة رسمية تتمتع بتأثير كبير يصعب مواجهته على المستوى الداخلي أو الخارجي، فلقد جاؤوا من الجنوب وسيطروا على المغرب و الجزائر كلها وبعد ذلك استعان بهم الملك المعتمد ملك إشبيلية فاكتسحوا كالإعصار الجارف المضيق البحري وخاضوا الحرب ضد الملك الفونس السادس، وألحقوا بالجيش المسيحي هزيمة ساحقة عام ١٠٨٦م، ذلك الجيش الذي كان الفرنسيون وغيرهم من المحاربين الأوروبيين قد انضموا إليه.

هنا، بالقرب من "سلاكا" وبعد المعركة السابقة بأربع سنوات خلال معركة حصن "اليدو" عام ١٠٩٠م التي لم تحسم نهائياً وقف فرسان الغرب وجهاً لوجه أمام فرسان المسلمين، وكان ذلك قبل سنوات قليلة من انطلاقهم إلى الأرض المقدسة عام ١٠٩٥ حينما نادى البابا بالحرب الصليبية.

## من هو الفارس الألماني؟

إن التحول الذي مر به فارس الصحراء قبل الإسلام ليصبح مجاهداً في سبيل الدين في إطار الجماعة الإسلامية، قد مر به العالم العربي قبل الغرب بقرون عدّة، ذلك أن فارس العصر الوسيط الذي أخذ في الظهور في ذلك الحين بهيئته الإسبانية - الأندلسية، قد وجد أمامه أنموذجاً مباشراً شاهده من خلال المعارك أيضاً، كان ذلك الأنموذج بمثابة المدرسة الأساسية التي أسهمت مع غيرها من التطورات الفكرية والاجتماعية المهمة في الغرب في خلق نوع من الفروسية القائمة على أكتاف محاربي الفرنجة الفرسان وعلى أسس حربية معينة. ولقد كانت تلك الفروسية على خلاف الفروسية العربية وطبقة فرسان الحدود المدافعين عن الدين - وعلى خلاف تام للتصورات التي غذتها الأبحاث ذات الاتجاه الرومانسي استناداً إلى أشعار الفروسية وحدها - أبعد ما تكون عن صفات الطبقة المستقلة والمتنافسة التي تمثل مستوى خاصاً داخل المجتمع، وإذا كانت جماعة الفرسان الفرنسية أقرب ما تكون إلى طبقة مختارة من المحاربين الفرسان وضعت حدوداً تفصلها عن الطبقات الأدنى، وسرعان ما تحولت نتيجة لنظام الوراثة إلى طبقة النبلاء، فإن ألمانيا كانت تفتقر إلى مثل تلك الوحدة الشاملة؛ ذلك لأن الحدود بين الطبقات في ألمانيا كانت أكثر مرونة وسلاسة، كما أن أشكال حياة الفرسان وتقاليدهم لم تكن قاصرة على طبقة معينة تتميز بمولدها أو معرفتها، وهكذا كان الفارس صاحب الإقطاعية وخدمه من العبيد، بل وكان الأمراء والقيصر نفسه يخدمون جميعاً بصفتهم فرسان محاربين مدججين بالسلاح في خدمة قضية معينة، بل لقد كانت القضية هي التي تحدد طبيعة الفروسية الألمانية

التي تقوم على الوعي الجماعي الفرساني الذي نشأت عنه فيما بعد الجماعات الاجتماعية على أساس من التقاليد والتجارب المشتركة والمصير الواحد - سواء نتيجة للعمل في خدمة الإمبراطورية أو من خلال الحروب الصليبية.

وبينما كانت سلطة الدولة في فرنسا تنتقل من أيدي الملوك الذين أخذ الضعف ينتابهم إلى أيدي الكنيسة والسادة المحليين وبدأ تأثيرها يتعاظم داخل النظام الإقطاعي المتدرج، فإن الملوك والأباطرة في ألمانيا كانوا هم الذين يكلفون الفرسان بحماية الإمبراطورية والدفاع عنها، وكان هذا الفارق جوهرياً إلى حد أنه أثر على التكوينات والتقاليد التي يتسم بها الطرفان وعلى أدائها في الحروب الصليبية ظاهراً وباطناً.

ولكن لم يكن أسلوب الحياة الفرساني ولا أهداف الفرسان في خدمة الإمبراطورية هي العوامل التي تميز الفارس الألماني ولكن روحه ونيته هما اللتان كانتا تميزه، ويقال إن تلك التقاليد مستمدة من الكنيسة.

بَيْدَ أنّه لا يوجد قولٌ يجافي الحقيقة مثل هذا القول، ويجب علينا منذ البداية أن نستبعد تفسيرين خاطئين بصفة نهائية، أولهما ذلك المبدأ المعمول به منذ قرون الذي يقول: إن أخلاقيات الفروسية هي نتاج ما يطلق عليه في المسيحية تعبير "محبة القريب" وأن ما ينادي به هذا المبدأ هو توفير الحماية للضعفاء ومن لا سند لهم، وسوف نعود إلى هذه المسألة مرة أخرى فيما بعد، أما التفسير غير الصائب الثاني فهو أيضاً المبدأ الذي ظل سارياً دون أن يحاول المرء أن يمعن فيه الفكر، والقائل بأنه حدث داخل طائفة الفرسان تزاوج بين الفروسية الدنيوية وبين شكل وروح الرهبانية، بما يعني حدوث "ارتباط بين المؤسستين".

وفي الحقيقة لم تكن هناك أية علاقات بين طائفة الفرسان وبين طائفة الرهبان وذلك لأن الكنيسة كانت ترفض رفضاً قاطعاً مهنة الحرب، كذلك فإن الفصل الواضح الذي قام به أوجستين بين الكنيسة بصفتها مملكة الرب وبين الدولة بصفتها مملكة الشيطان، والتي لا يسمح لأحد أن يتجاوز حدودها، كان يمثل واجبين واضحين على الإنسان: من يخدم المسيح ومملكة الرب، عليه أن يقاتل بالصلاة وليس بالسيف وكان على الآخر أن يرفع سيفه في وجه الشر، وعلى الرغم من ذلك فإن المحارب الذي كان "يشارك في المعركة ويرتكب فيها القتل "كان عليه أن يتوقع التعرض للعقاب وهي القاعدة التي جاءت على لسان هارابنوس ماوروس، أحد معاصري لودفيج التقي وظل العمل سارياً بها طوال مئات السنين، فلقد كانت حياة المحارب تعتبر مرادفاً للبعد الخاطئ عن الله ولتعريض خلاص الروح للخطر، ذلك أنه حتى ولو كان القتال الذي يخوضه المحارب من أجل الدفاع فإن تعاليم التكفير كانت تنص على ضرورة أن يقضي فترة تكفير تصل إلى أربعين يوماً، وأحياناً كانت تصل إلى عام كامل.

ولم تكن الكنيسة تغير مواقفها هذه إلا عندما ترى أنها هي المعرضة للخطر، سواء من جانب اللصوص أو من هم على غير دينها، أو من جانب أتباع محمد أو من جانب الإمبراطورية الألمانية عندما لا ترضى عنها الكنيسة أو عندما ترفض الخضوع لسيطرتها؛ وهنا كانت الكنيسة نفسها هي التي تدعو إلى حمل السلاح، وفي كل مكان كانت الكنيسة ترسل إليه جيوشها - بالطبع من أجل الدفاع عن المسيحية فحسب - كما حدث في عام ١٠٦٤م في عملية الاستيلاء على حصن "بريشتر العربي" وقتل كل سكانه، وهنا تبدأ الكنيسة على حين غرة في تبني أفكار وأنماط مسلمة وهي تقاتل العرب.

## الكنيسة تتعلم في مدرسة الإسلام

تمنح الكنيسة في ذلك الوقت وعلى نحو مفاجئ وعداً لمن يسقط في الحرب ضد "الكفار" بأنه سيحظى "بالحياة الأبدية" وكما أن الله يعد في قرآنه (الآيات ٩٥ - ٩٦ من سورة النساء) من يتسابقون للقتال بقوله: ﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً. . . ﴾ كذلك تكشف الكنيسة عن إرادة الله الممثلة في البابا أوربان الثاني الذي يُعَد "البابا الأكبر للعالم" وذلك حين دعا أمام المجلس الكنسي بكلير مونت في فرنسا يوم ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م من خلال ندائه للناس بالذهاب إلى الحرب الصليبية ضد العصبة الخبيثة ويقصد بها الأتراك والعرب - ما يلي: "إن من يذهبون إلى هناك ويضحون بحياتهم سواء وهم في طريقهم براً أوبحراً أو خلال المعركة ضد الكفار- سوف تغفر خطاياهم في تلك الساعة، وإني ضامن لذلك بسلطان الرب الذي منحه لي، وإن الذين كانوا يرتزقون أجوراً مُزرية لهم أن ينعموا الآن بالمكافأة الأبدية».

وهكذا بدأت الكنيسة فجأة تحذو حذو الإسلام وتعتنق فكرة "الحرب المقدسة" وتتحمس لها، وكما أن تلك الحرب المقدسة بالنسبة إلى الإسلام وإلى من يخوضونها تعتبر بمنزلة دعائم في الطريق المؤدي إلى السماء وكما قال أحد العرب من مدينة "ألرية" فإن الكلونيين الأقوياء ذوي المكانة بدؤوا يتلقفون الآن مبدأ الحرب المقدسة، منهم الذين كانوا يمسكون بأيديهم من وراء الكواليس بخيوط الموقف، كما أنهم كانوا قد تلقفوا بذكاء داخل أديرتهم العديدة التي أنشؤوها

بامتداد طريق الحج إلى سانتياغو دي كومبو ستيلا في الممالك الإسبانية الشمالية، تلقفوا تلك التأثيرات العربية وكان القساوسة الكلونيين المصلين هم الذين عمدوا في روما إلى إعادة صياغة الأفكار الإسلامية عن الحرب المقدسة - وكما سنرى فيما بعد - إعادة صياغة فكرة الحرب العقدية وصبها في مفاهيم الحرب الصليبية ضد الإسلام وفي فكرة الفارس الصليبي.

ويوضح التناول الصليبي لهذه المسألة أمام المجلس الكنسي في كليرمونت ذلك الاتجاه الجديد الذي كان من شأنه أن يحدث تغييرات جذرية: أي تحقيق الربط - الذي بذلت الجهود بحماس حتى ذلك الحين لتجنبه - بين الخدمة الحربية "الربانية" وتلك "الدنيوية" لدى مجموعة من الفرسان غير المحترفين، وكما هو الحال بالنسبة إلى مسألة روح القتال العقدية لدى المسلمين التي أدت بشكل حماسي دافق لا مثيل له في العالم إلى نقل دار الإسلام من نقطة البداية حتى جبال البرانس، كما أخذ الواجب الديني المسيحي يرتبط منذ تلك اللحظة لدى المحارب الصليبي بالواجب الحربي، وكان هذا هو الذي قدح زناد ذلك الحماس العقدي الذي ارتفع شاهقاً بشكل مفاجئ.

وطالما أن الكنيسة كانت تقف موقف الرفض من صناعة الحرب، فمن الطبيعي أنها لم تستطع رفع أي من المحاربين لينال شرف "القديس المحارب" ولكن بالقدر نفسه من التغيير الذي انتاب هذه الأمور كلها كان لزاماً على الكنيسة أن تعود إلى استلهام شهداء روما الشرقية الذين كانوا جنوداً حقيقين أو وفقاً للأسطورة التي تسرد بهذا الخصوص - كانوا جنوداً مصادفةً، ولكن لم يكن مسموحاً هنا بالقدر الكبير من التملق. وعموماً فقد انطبق الأمر على موريتسيوس وسباستيان، وهناك أيضاً الشهيد الشرقي جورج، الفلسطيني المنبت الذي دفن في الرملة وكان

قد قام بأروع وأقوى الأعمال التي تشبه المعجزة، حيث وقف ذات مرة يقاتل إلى جانب أحد الفرسان.

وبدأ التساؤل يثور الآن حول من يمكنه الادعاء بأنه أحق بأن يكون "قدّيس الفرسان" الذي يحمل الراية وينصرهم في الحرب، ويرافق منذ هذه -اللحظة- محاربي العقيدة المسيحية في أول حملة صليبية، ويكون قائداً لهم في صورة الفارس فوق صهوة جواده الأبيض، حاملاً راية بيضاء مرفوعة فوق رأس رمحه لمواجهة الشرقيين الكفار.

لقد أحدثت فكرة الحرب المقدسة مفعولها؛ وهكذا أخذ القديس جورج راية وجواداً، ذلك القديس الذي أرادت إسبانيا المسيحية أن ترد عن طريقه على تلك المهابة الآسرة للمقاتل[1] محمد ﷺ.

لقد أصبح القديس جورج يماثل في أدق تفاصيله وأوضحها الصورة التامة للقديس جاكوب الذي يحظى بالتبجيل في كومبوستيلا التي تعد أكبر مركز للحجيج في القارة الأوروبية، وهي تقع على الطرف الشمالي الغربي من شبه جزيرة إيبريا، وكان القديس جاكوب فارساً، وقد أوضح كاسترو بشكل مقنع تماماً أن إسبانيا المسيحية جعلت منه الصورة المجسدّة للعقيدة المعادية للمسلمين ونبيهم محمد ﷺ، حتى يتمكنوا بذلك من خوض المعارك تحت حمايته ضد المسلمين الذين تأخذ عقيدتهم القتالية بمجامع قلوبهم.

والآن فقد حل القديس جورج مكان القديس جاكوب بهيئته وتسليحه وانطلق إلى الأرض المقدسة ليقاتل ضد المسلمين ولم يقتصر الأمر على الحرب المقدسة

(١) ليس من الصواب وصف النبي عليه السلام بالمقاتل فقط فقد كان رحمة للناس جميعًا. وكان يكره القتال إلا إذا اضطر إليه.

التي أخذت صورة الحرب الصليبية أو على القديس المحارب في هيئة القديس جورج أو على مارتين أو موريتسيوس وسيلة لجأت إليها الكنيسة لمحاربة العقيدة المقاتلة والفروسية المحاربة المبنية على الإيمان لدى العدو العربي، ولكن كانت هناك أيضاً الراية المقدسة التي ترمز إلى الحرب أو إلى ميدان المعركة، على الرغم من أن الكنيسة كانت قد رفضتها في البداية بقوة رفضها للحرب ذاتها، وذلك لكونها رمزاً وثنياً، أما الآن فقد عادت تلك الراية إلى الظهور فجأة في كل مكان؛ ظهرت أولاً وبشكل خاص على جبهات القتال بين المسيحيين والمسلمين. وكان المحاربون وقادة الجيوش الذين عادوا من حروبهم مع العرب في صقلية أو جنوب إيطاليا أو إسبانيا أو تأهبوا لحملات جديدة ضد المسلمين، كانوا يطلبون دائماً من تلقاء أنفسهم من بابا روما أن يمنحهم الراية المقدسة، وكان الطلب يأتي عادة من جانب المحاربين أنفسهم الذين حمل خصومهم راياتهم وهم يواجهونهم.

وإذا كانت الكنيسة قد اعتادت طوال مئات السنين أن تمنح الصليب للملك ليكون بمنزلة رمز انتصار المسيح يرفعه خلال المعركة ضامناً تحقيق ذلك النصر، فإن النبي محمداً ﷺ والخلفاء من بعده كانوا بالفعل يمنحون قادة جيوشهم رايات مقدسة[1] يربطونها قبل المعركة على رماحهم، وكان النورمانديون هم الذين قاموا بدور الناقل لتلك العادة لأنهم كانوا قد وصلوا في حملاتهم الحربية حتى الشرق البيزنطي والعربي وعادوا ومعهم بعض الممتلكات العربية غنيمة حرب، حتى قبل أن يضم الشرق بين جنباته المحاربين الصليبين، ويحتفظ بساط بايو بآثار تدل على ذلك.

وهكذا أرسلت الكنيسة ابتداء من القرن الحادي عشر الراية المقدسة أو ما يطلق عليها "علم بطرس" إلى النورمانديين من أجل السيطرة على صقلية التي يحتلها

(١) لم توصف الرايات في الإسلام بالقداسة وإنما كانت ترفع الرايات رمزاً وعلامة للجيش المحارب.

العرب، وأيضاً لغزو إنجلترا، فُسلّم العلم في عام ١٠٦٦م إلى وليام فون دير نورماندي، وفي عام ١٠٦٣م/ ١٠٦٤م أرسله مع مندوب البابا إلى الحملة الصليبية الإسبانية ضد العرب في باربسترو، حيث كان الجيش الصليبي يقيم بوحشية.

وأرسلت الكنيسة كذلك علم بطرس إلى إيرليمبالد اللانجوباردي العائد من القدس، وفي عام ١٠٨٧م تم إرساله إلى الجيش الذي أقلع بسفنه إلى مهدية بإفريقية - مكان في تونس حالياً - وعلى الرغم من أن بعض رجال الدين كانوا لا يزالون يعترضون على ذلك إلا أن هذه العادة الجديدة بدأت تفرض نفسها سريعاً، وكان ذلك أيضاً بمنزلة تأثر من جانب الغرب بنموذج إسلامي آخر.

ويجدر بنا أن نتمهل قليلاً عند إيرليمبالد اللانجوباردي؛ لأن قصته تؤكد من جديد على عملية الفصل المقصودة التي أرادتها الكنيسة بين الفروسية العقدية وبين الرهبانية. فقد رجع إيرليمبالد من الحج إلى فلسطين عائداً إلى ميلانو وقرر أن يهجر العالم ويذهب للعيش في الدير، وهنا ضغط عليه القس أريالد المقرب من بابا الرهبان الكلونيين (نسبة إلى دير كلونية) لكي لا يتحلل من عهد الرهبنة ذاكراً أنه سوف يحصل على جائزة كبيرة من الرب إذا عاد يحارب بصفته محاربًا غير محترف في سبيل قضية العقيدة، وذلك بأن يضع نفسه على رأس الحركة الشعبية في ميلانو المسماه (باتريا) لكي يخدم بذلك الأهداف الإصلاحية لطائفة رهبان الكلونيين.

إلا أن ذلك كان يعتبر بالنسبة إلى الدوائر الشديدة التحفظ في الكنيسة وبالنسبة إلى بتروس دامياني وهو أحد الخصوم العتاة لفكرة الحرب المقدسة، بمنزلة خطيئة كبرى في حق المبادئ التقليدية للكنيسة، وذلك لأن تعبيرات العقيدة والسيف، أو الكنيسة والفروسية، كانت تعطي الانطباع بأنها تحمل تناقض تعبيرات: القداسة

والخطيئة، أو الانتقاء الإلهي و "الطلاق" ! مثلاً، وفي الحقيقة فإن تبريراته الحادة تلك التي اعتاد عليها كانت تحوي بعض المنطق، فهو يقول: "إذا كان المرء يعارض انشغال البابا "ليو" الدائم بالنشاط الحربي مع كونه شخصاً مقدساً في الوقت نفسه، فإنه يمكننا القول بأن بطرس لم يحصل على لقب "أمير الحواريين" لكونه أنكر الرب، كما أن الملك داود لم يحظ بنعمة النبوة لأنه نام في سرير شخص آخر[1].

إلا أنه لم يكن من الممكن إقناع إيرليمبالد بتلك المقارنة وبما حاولت البرهنة عليه. وبغض النظر عن كافة الاحتجاجات الرجعية، فإنه تولى بصفته -جندياً جديراً- رئاسة الحركة الإصلاحية مثلما كان الفتى العربي يرأس جماعة الفتوة، وقد سقط إيرليمباد في الحرب عام ١٠٧٥م وأصبح شهيداً على شرف المذبح وأول فارس يصير قديساً للكنيسة الإصلاحية.

(١) جميع الأفكار الواردة في هذه الفقرة منافية تمامًا للعقيدة الإسلامية.

## روابط الفرسان محاكاة
## للفروسية الإسلامية العربية

كما أسلفنا القول، فإن المضمون الديني والروحي كان هو الهدف النموذجي، تماماً مثل فكرة "الإمبراطورية" أو تحرير الأماكن المقدسة" التي عملت على بعث الروح في مفهوم الفروسية وميزت شخصية الفارس الحقيقية.

ولقد تطورت الفروسية الصليبية الجديدة إلى شكل خاص بها نتيجة لصراعها ولاتصالها مع العالم العربي في الشرق؛ ذلك هو شكل الفارس الذي ينتمي إلى الرابطة. وكان تشكيل روابط الفرسان يمثل في الحقيقة محاكاة تامة لفروسية طوائف المرابطين التي تشكلت بعد حملات الغزو المبكرة.

وكانت البداية معروفة : فقد انتهت أول حملة صليبية إلى القبر المقدس بقيادة النبلاء الفرنسيين وبتأييد من النورمانديين بعد حوالي ثلاث سنوات من الجهود الشاقة المضنية والمعارك والحصار الطويل القاسي - خاصة حصار قلعة أنطاكية ذات الدفاعات الحصينة - بالاستيلاء على القدس. إلا أن ذلك الانتصار ألقى ظلالاً قاتمة على الفروسية المسيحية بسبب حمامات الدم الفظيعة داخل أسوار المدينة "المقدسة"، كما أن جزءاً من النبلاء الفرنسيين والنورمانديين بقي في البلاد مع جزء آخر من الفرسان وأسسوا مملكة القدس وعدداً من الإمارات الصغيرة.

وفي عام ١١٢٦م انطلق فارسان من القدس إلى فرنسا لمقابلة الأسقف بيرنهارد ذي النفوذ القوي، وهو أسقف كليرفو والزعيم الروحي، والبابا غير المتوج للمسيحية، ونعني بهما الفارسيْن أندرياس فون مونتبري، عم بيرنهارد،

وجونديمار، وقاما بتسليم الأسقف رسالة توصية من ملك القدس يرجوه فيها أن يستغل نفوذه الكبير في مساعدة من سلماه الرسالة وتأييد الطلب الذي يتقدمان به إلى البابا لكي يمدهما بكوكبة من الفرسان تكون نواة لتكوين رابطة، على أن يقوما بأنفسهما بوضع الأسس التي تقوم عليها تلك الرابطة الجديدة. وحتى لا يحيد رجل الدين من طائفة رهبان البنيديكتيين عن الهدف النضالي فإنه (أي ملك القدس) أكد على "أن تلك القواعد لا يجب أن تحيد عن ضجيج المعارك وصخبها".

إلا أن بيرنهارد ترك (عمه) ينتظر، وانقضى عام بدون أن يحصل شيء جديد. وهنا اتخذ مؤسس ومعلم تلك المجموعة من الفرسان، هو جوفون باينس من البروفانس، مع خمسة من رفاقه طريقهم إلى كليرفو. الأمر الذي يدعو إلى التساؤل عما إذا كان هؤلاء يمثلون بالفعل مجموعة غير محترفة من الهواة! إذ إن ذلك المسلك يحمل في طياته تناقضاً داخلياً. فقد رأى بيرنهارد أن تلك الخطة تثير الشكوك وأن الموافقة عليها ستجلب غضب البابا بالتأكيد، حيث إنها إجراء يتسم بالنزق والخطورة.

يتضح من ذلك أنه كان من الصعب أن يستجيب العالم المسيحي لمطالب فرسان القدس؛ وذلك لأن التعبيرات المستخدمة مثل "الثورية" و"الخطورة" و"عدم الاحتراف" و"الفروسية" إذا امتزجت مع بعضها في إطار رابطة مقدسة للقتال بالسيف و الرمح، ألا تمثل في تلك الحالة تناقضاً مع كافة التقاليد والأخلاقيات المسيحية؟

عموماً لم تكن تلك هي التجربة التي خاض غمارها الفارس البروفانسي، ذلك أن الطوائف الرهبانية المقاتلة التي تراجعت عن حدودها قد خلفت قلاعها

الحدودية حيث كان الفرسان المسيحيون يلتقون بها دائماً على الجانب الآخر من جبال البرانس. وفيما عدا ذلك ألم تقع تعاملات بين جيش الصليبيين على امتداد منطقة الحدود البيزنطية - السورية كلها التي زحف عبرها الجيش الصليبي وهو يقاتل ليشق طريقه نحو فلسطين، وبين فرسان الحدود العرب المدربين والمنظمين جيداً؟

أما كون العرب قد استطاعو المواءمة بين حياة تقوم على التقوى والتقشف يخوضون خلالها حروب الفروسية التي تسيل دماؤهم في سبيلها؛ لأنه لم يكن لديهم انفصال بين الجسد والروح، أو بين الدنيا والآخرة، وهذا الأمر أمر لم يكن متاحاً لهؤلاء المسيحيين أن يحاكوه أو يقلدوه لأنهم قد شبوا على التفكير في إطار مفاهيم ومسلمات مطلقة تتسم بازدواجية شديدة. يضاف إلى ذلك أنهم يمزقون الإنسان، بل والوجود[1] الرباني كله إلى جزأين بشكل لا يقبل الإصلاح أو المداواة. كذلك كان عسيراً عليهم تصور إمكانية الجمع بين التقوى والجمال، بين جدية العقيدة والفرح بنعمة الحياة، كما فعل العرب بصورة (منسقّة) لا تجعل جانباً يطغى على الجانب الآخر.

وكان لزاماً على هوجر وفرسانه الإصرار على قضيتهم المرة تلو المرة لكي يدفعوا بيرنهارد إلى تأييد تلك الفكرة الجديدة "التي تتسم بالنزق والخطورة". وفي الحقيقة فإنه لم يكن قادراً على تأييد القواعد التي ستقوم على أساسها تلك الطائفة التي قدمها له المعلم هوجو دون أن يجري عليها تغييرات جوهرية، وفوق ذلك فإن مجلس مدينة تروا "Troyes" والبطريرك أدخلا أيضاً تعديلاتهما. وأخيراً وبعد مضي ثلاث سنوات تم تحديد تلك القواعد في صياغة بموافقة البابا هوفوريوس الثاني.

(١) هذا التعبير غير مقبول عقيدةً عند المسلمين، وما ترمي إليه المؤلفة أنهم يفصلون بين الروح والمادة فصلا لا تلاحم فيه، أما الإسلام فإنه ينميهما معًا وينسق بينهما.

لكن على الرغم من أن تلك الصياغة حرصت على عدم الإشارة إلى "وطيس المعارك" فإن فرسان المعبد - وهو الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم مستخدمينه من مقر إقامتهم في منطقة القصر بالقدس، فوق أرض معبد سليمان، والتي بني فوقها المسجد الأقصى - نجحوا باستمرار في فرض بعض المبادئ الخاصة إلى جانب التعليمات التي تلزمهم بالتقشف والطهارة والطاعة، وهي المميزات التي كانت وثيقة الصلة بأخلاقيات الفرسان العرب مثل: البساطة الشديدة والنظام. وكانت تلك المتطلبات تعتبر من ضرورات القتال ضد العرب كما كانت تتفق مع ما التزموا به من واجبات باختيارهم. مثل: تقديم الحماية المسلحة اللازمة للحجاج إلى الأماكن المقدسة، والدفاع عن الطرق ذات الأهمية العسكرية، وعن المواقع الرئيسية، والعمل بشكل خاص على توفير الحماية لمملكة القدس الوليدة مستخدمين القلاع والحصون التي تم الاستيلاء عليها نقاطاً للانطلاق، بالإضافة إلى مهمة دعم الجيش المسيحي والجيوش الصليبية التي تصل إلى البلاد.

ولم يسبب نجاح هوجر فون باينس خلال تلك الأثناء في كسب "إخوان جدد" للطائفة في فرنسا وإسبانيا، واضطر -بسبب ضيق مجال الاختيار أمامه- إلى قبول بعض الذين وعدهم بالعفو عما ارتكبوه من آثام إذا هم حاربوا ضد الكفار، لم يحدث ما من شأنه أن يؤثر على الحماس المتنامي تدريجياً لدى رئيس دير كليوفو إزاء هذا السلاح الرباني الجديد في مواجهة الكفار، وإنما حدث العكس تماماً، فلقد امتدح ذلك الراهب الذي يدق طبول الحرب لتحرير الأرض المقدسة في خطاب له عام ١١٤٦م إلى أساقفة كولون وشباير بألمانيا - الذين لم يظهروا حتى ذلك الحين ميلاً كبيراً للنهوض لقتال العرب -امتدح الحرب الصليبية التي تخوضها تلك الطائفة ووصفها بأنها: "فكرة حلت بها البركة تفتق عنها ذهن

الرب لكي يتيح للقتلة واللصوص ومنتهكي الأعراض ومن حنثوا بالقسم وغيرهم من المجرمين أن ينخرطوا في خدمته – أي خدمة الرب– ليتيح لهم فرصة الخلاص[1] . " وبهذا المعنى أيضاً تحدث في موعظته الشهيرة " في تقريظ الفروسية الجديدة التي وجهها إلى المسيحيين وإلى فرسان المعبد وهم في طريقهم إلى الجبهة مباركاً إياهم :

" يجب قبل كل شيء الالتزام بالنظام والطاعة التامة . وعلى الجميع ألا يتحركوا إلا حسب أوامر رئيسهم، وهم يرتدون الملابس التي منحت لهم . ولا يجب أن يسعى أي شخص لكي يحصل لنفسه على ملبس، أو مأكل حسب ما تشتهيه نفسه، كما أن على الجميع أن يرضوا بالطعام، والكساء، بالقدر الضروري لهم فقط، وتجنب كل ما هو زائد عن الحاجة، لأن فرسان المعبد يعيشون وفق تقاليد معينة داخل الجماعة بدون نساء أوأطفال، قانعين راضين بذلك، حتى يستطيعوا الاقتراب قدر طاقتهم من أسلوب معيشة الحواريين؛ عليهم أن يعيشوا جميعاً تحت الظروف نفسها وفي المكان نفسه ، كما يجب عليهم ألا يدعوا ملكية أي شيء لأنفسهم حتى تتحقق وحدتهم الأخلاقية والمزاجية التي تتيح لهم العيش معاً في وئام .

إنهم يتحاشون إرسال القول على عواهنه، أو الانشغال بالأمور غير المجدية أو إطلاق الضحكات الرنانة أو اللمز والغمز، كما أنهم يترفعون عن ألعاب الشطرنج والنرد، ويكرهون الصيد، بل لا يميلون حتى إلى تربية الصقور، ولا يستهويهم الممثلون الهزليون، والحواة، والمهرجون، ومن يثرثرون كثيراً، أو يتشدقون بأغان لها إيحاءات خاصة، فهم ينظرون إلى كل تلك الأمور بازدراء، ويعتبرونها

(١) هذا المفهوم عن الحرب في هذه الفقرة وما تلاها لا يتفق ومفهوم الإسلام عنها . فهو مفهوم نصراني بحت .

حماقة لا طائل من ورائها. كذلك فإنهم يقصرون شعورهم، لأنه مما يشين الرجل أن يكون شعره طويلاً. كذلك فإنهم لا يغالون في ملبسهم كثيراً ويستحمون لماماً، فهم قذرون، يكسو الشعر أجسامهم، وتبدو بشرتهم سوداء بسبب تلويح الشمس لها وارتدائهم قمصان الزرد الحديدية.

هل هذا واقع فعلي أم مجرد أمان؟ أم ربما يكون صيحة تحذير مستترة نتيجة للقلق من غلبة الأمور الدنيوية، والتأثر بها، والخوف من الأخذ بالطباع العربية كانت هي التي أملت إعطاء تلك الصورة الشوهاء؟

إذ ما الذي يدفعنا خلاف ذلك إلى أن نستمع إلى ذلك المديح الذي يكتبه بيرنهارد لفرسان الطائفة بسبب امتناعهم عن لعب الشطرنج ورياضة الصقور والاستمتاع بالممثلين ورواة الأساطير والسحرة والمهرجين، وكان الأفضل له أن يمتدح بطولتهم في القتال من أجل رفعة الرب، ثم يمتدح فيهم كذلك عدم الاهتمام بتصفيف شعورهم أو ارتداء الملابس الناعمة أو يمتدح نظافة أجسامهم، في حين أن الإنسان المسلم يؤدي ذلك خمس مرات يومياً كنوع من العبادة!.

وهكذا نرى أن هناك ما يبرر تماماً ذلك الخوف من أن تتأثر الروح المسيحية بالحياة بين "الكفار".

حقاً، لم تكن طائفة فرسان المعبد هي أول ولا آخر طوائف الفرسان التي تكونت كرد فعل على وجود طوائف الفرسان العربية الحدودية في ممالك فلسطين وسوريا الخاضعة للفرنجة، كما كانت في الوقت نفسه بمثابة محاكاة لتلك الطوائف. وكانت تتشكل بناء على مبادرة من فارس، أو مجموعة من الفرسان والتي كانت تلقى الرفض الشديد من رجال الدين، في حين تلقى القبول والاتباع من جانب فرسان الغرب. وأصبح فارس الطائفة هو الأنموذج المثالي للفارس

الصليبي عموماً، لأنه أصبح يجسد الصورة المثلى النقية له.

وخلافاً للوضع بالنسبة إلى فرسان المعبد، فإن فرسان يوحنا والفرسان الألمان ربطوا بين الواجب العسكري مثل حماية حدود البلاد، وبين تقديم المعونة الاجتماعية وتوفير العناية بالمرضى والفقراء. ولم يكن متاحاً التفكير في مثل هذا النموذج لولا وجود الأنموذج الإسلامي الحيّ. فعلى حين كان الغرب قبل الحروب الصليبية وبعدها بعدة قرون لا يعرف أية تقاليد للعناية بالمرضى داخل مستشفيات ومصحات خاصة، كان هناك في القدس مأوى للحجاج المسيحيين، منح هارون الرشيد لشارلمان حق حمايته. وتحول هذا المأوى مع مرور الزمن إلى مستشفى بني على غرار العديد من المستشفيات التي كانت منتشرة في كافة المدن العربية. وكان ذلك المستشفى الجديد الذي أطلق عليه اسم القديس يوحنا تيمناً به، يوجد أثناء الحملة الصليبية الأولى أمام جيرارد من مقاطعة البروفانس، وسرعان ما أسسَّ جيرارد بعد الهجوم على القدس، رابطة حرة للفرسان اهتمَّت باستقبال الجرحى والمرضى والعناية بالجوعى والفقراء الذين يطرقون بابها.

وذلك لأن الفرسان المحاربين الذي اعتادوا القتال كانوا هم الذين يتولّون الأعمال التي تتسم بالرحمة وليس الرهبان، ولقد كانت مهمة تخفيف الآلام، وتحقيق محبة الجار تعني بالنسبة إلى نبلاء الغرب المسيحي عموماً المنح والنظر بنوع من التعالي لا أكثر؛ لذلك جعل الفرسان من بين واجباتهم تقديم المساعدات المؤثرة في إنكار الذات للمرضى والفقراء، وعدوها مهمتهم الأولى في الحياة ولكن دون التخلي عن أداء واجباتهم العسكرية في حماية الحدود ومقاتلة الكفار - على الرغم من سخط روما الشديد، وحتى بالنسبة إلى ذلك العمل الكريم الذي

يرتبط بأداء الخدمة العسكرية والذي ذكره ابن عربي الأندلسي، نجد أن طوائف الفرسان الفرنسية أخذت تتشكل في ذلك الحين في الأراضي المقدسة.

ويدلنا هذا على أن الرهبانية لم تشارك بشكل أساسي في نشأة تلك الروابط؛ ذلك أن الرهبان حاولوا النفاذ إلى الأسس التي قامت عليها تلك الروابط بصورة أو بأخرى بداية من الرابطتين الأقدم اليوحانية والألمانية التي كان أفرادها يعيشون حتى ذلك الحين دون دستور خاص، وبدون اعتراف الكنيسة بهما، وبصورة بدائية. فلم تكن الرهبانية قد شاركت في نشأتها تلك، ذلك أنه بالنسبة إلى القاعدة التي يسير عليها الفرسان بدرجات متفاوتة الشدة، والتي استقتها من روما طائفة اليوحانيين والفرسان الألمان اللتان ظهرتا بعد طائفة فرسان المعبد بوقت طويل، فقد حاولت الروح الرهبانية التسلل إليها، بل والعمل للحد من نشاط الطوائف العسكرية وذلك بأن غضت الطرف عنها.